الفصل الثانى

ابن رشيق فى عصره

١ — نشأته وحياته : (٣٩٠ هـ — ٤٥٦ هـ)

وكلامنا فى هذا الفصل يشمل نشأته وأسرته وسلوكه فى حياته وصلاته بالناس إلى أن يفارق الحياة . وقد قضى ابن رشيق الجزء الأكبر من هذه الحياة ، والحافل بما خلد اسمه فى مدينة القيروان . تلك التى نزح إليها فى السادسة عشرة من عمره ، على الراجح ، حيث قصدها سنة ٤٠٦هـ . ولم يرم عنها إلا فى سنة ٤٤٩هـ . عندما غادرها المعز إلى المهدية وكان صاحبنا « ممن انحشر فى زمرته المحروبة » فيكون على هذا قد قضى فى القيروان ثلاثة وأربعين عاماً .

وبرغم طول هذه المدة ، وبرغم ما كان للرجل فيها من إنتاج كثير ومن مشاركة فى الحياة الأدبية ، فإن جانب حياته فى خاصة نفسه وأهله مما يكتنفه كثير من الغموض ، لأن الذين ترجموا له لم يتحدثوا فيه إلا لماماً .

٢ — أبوه

فالمصادر التى عرضت لابن رشيق ، وأقدمها فيما نعلم — الذخيرة لابن بسام المتوفى سنة ٥٤٢ هـ. لم تحمل إلينا شيئاً ذا بال عن والده إلا أن يكون اسمه وإلا أنه كان مولى من موالى الأزد[1] . والأزد قبيلة من قحطان هاجرت إلى المغرب فيمن هاجر من العرب الذين نزحوا عن جزيرتهم .

واسم والده على ما جاء فى هذه المصادر « رشيق » ويكاد إجماع الذين ترجموا له ينعقد على ذلك ، فكلهم يقول فى التعريف به هو « أبو على حسن

(١) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٦٤ .

« ابن رشيق » فكنيته أبو على ، واسمه حسن ، واسم أبيه رشيق ، لا يشذ عن ذلك أحد إلا نسخة خطية فى مكتبة تيمور تحت رقم ٩٧٩ أدب تذكر فى عنوانها أنه « أبو على حسن بن على بن رشيق » فهى تجعل اسم والده « عليًّا » وليس مثل ذلك لغيرها من المخطوطات ، ولا فى الترجمات ، إلا ما جاء فى ترجمة يوسف اليان سركيس فقد ذكره على أنه « أبو على الحسن بن على بن رشيق »

ولما كانت مخطوطة تيمور متأخرة عن مخطوطة أخرى بدار الكتب — سأثبت بعد ، أنها أصح النسخ وأجدرها بالأخذ عنها — وكان أبوه فيها (رشيقاً » وليس عليًّا ، وكان الذين ترجموا له — ما عدا سركيس على هذا ، فإنى أرد ما جاء فى التيمورية وفى الترجمة المتأخرة لسركيس ، وأقرر أن اسم والده هو رشيق .

قالوا وكان أبوه صائغاً علم ابنه صنعته فى المسيلة ، ولكن الأبن نزع إلى الأدب فنزح إلى القيروان . وكأنى بصنعة الوالد قد نضجت فى أسلوب الولد حين سمى كتابه فى نقد أشعار العرب « قراضة الذهب » على ما سنذكره .

وكان ابن رشيق راضياً عن أبيه يفاخر به أنداده الذين عيّروه أنه ليس من سادات العرب ولا من العرب أنفسهم فقال لهم :

أما أبى فرشيق لست أنكره قل لى أبوك وصوّره من الخشب

وقال « ما أبغى به أباً ، ولا أرضى بمذهبه مذهباً ، رضيب به روميًّا لا دعيًّا ولا بدعيًّا » وهو فى هذا كله يعرض بابن شرف القيروانى الشاعر الذى عاصره ، والذى قالوا عنه إن « شرفاً » اسم لوالدته ، وليس علماً على أبيه لأنه كان مجهول النسب .

٣ — شركاؤه فى الاسم

« وابن رشيق » عَلَمٌ على غير صاحبنا ، فهناك عبد الرحمن بن رشيق

---

(١) معجم المطبوعات العربية والعبرية ج ١ ص ١١٠ .

الأندلسى الذى احتفل بالمعتمد بن عباد أحد ملوك اشبيلية من الطوائف ؛ وقد استضافه ابن رشيق على أنه سيده ثم لم يلبث أن جاهره بالعداء ولم يسع المعتمد إلا أن يرضى منه بضريبة يؤديها إليه مسانهة ، وبخيل بجهزها له عند الحاجة . وأخيراً حينما أتيحت الفرصة ليوسف بن تاشفين ، استدعى ابن رشيق هذا وحاكمه ، ثم أمر به فأسلم إلى المعتمد بن عباد ، « فنقل ابن رشيق إلى إشبيلية وبقى فيها إلى أن دخلها الملثمون على ابن عباد فخرج من ثقافة »[١]

وهناك أحمد بن رشيق الأندلسى أيضاً ، ترجم له ياقوت فى صفحتين من معجمه[٢]

٤ — ولادته

يختلف المؤرخون وأصحاب الطبقات ممن عرض للحديث عن ابن رشيق اختلافاً كبيراً فى مكان ولادته ، كما يختلفون فى سنتها ، وسنذكر ما وقفنا عليه من ذلك كله لنرجح منه ما نرى أن الأدلة تساندنا فى ترجيحه .

ففيما يتعلق بالمكان نرى ابن بسام (٥٤٢هـ) يقول فى الذخيرة : « فصل فى ذكر الأديب الكامل أبى على ابن رشيق المسيلى»[٣] وهكذا يطالعنا أول ما يطالعنا بنسبة الرجل إلى المسيلة ، ثم يقول : بلغنى أنه ولد بالمسيلة وتأدب بها قليلا ثم ارتحل إلى القيروان سنة ست وار بعمائة[٤]

وابن فضل الله العمرى يقول مثل ذلك[٥] ويصرح بأنه نقل عن ابن بسام. ونرى القفطى (٦٣٨هـ) يقول « الحسن بن رشيق القيروانى ، الفاضل الأديب ،

---

(١) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام جـ ٣ ص ٢٩٦ .

(٢) معجم الأدباء جـ ٣ ص ٣٤ .

(٣) القسم الرابع من الذخيرة — مصور عن مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية رقم ٢٦٠٤٦ ص ١٧٢ .

(٤) القسم الرابع من الذخيرة — مصور عن مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية رقم ٢٦٠٤٦ ص ١٧٢ .

(٥) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار جـ ١ ص ٢٧٧ .

الجليل القدر ، المصنف كتاب العمدة ، وجدت له ما صورته هو الحسن بن رشيق الإفريقي المعروف بالقيروانى من أهل مدينة من مدن إفريقية تعرف بالمحمدية ، وأبوه رشيق مملوك رومى لرجل من أهل المحمدية من الأزد »[١]

ثم يقول « ولد الحسن بن رشيق بالمحمدية ونشأ بها وعلمه أبوه صنعته وهى الصياغة ، وقرأ الأدب بالمحمدية ، وقال الشعر قبل أن يبلغ الحلم ، واشتاقت نفسه إلى التزيد من ذلك وملاقاة أهل الأدب ، فرحل إلى القيروان وعمره ستة عشرة سنة — كذا — وامتدح بها واشتهر بجودة الخاطر »[٢].

ويقول صاحب معجم الأدباء إن ابن رشيق قال فى آخر كتابه الأنموذج عن نفسه :

« صاحب الكتاب هو حسن بن رشيق ، مولى من موالى الأزد ، ولد بالمحمدية سنة ٣٩٠ هـ ، وتأدب بها يسيراً وقدم إلى الحضرة سنة (٤٠٦هـ) وامتدح سيدنا خلد الله دولته »[٣]

ويقول ابن خلكان عن ابن بسام إنه قال « بلغنى أنه ولد بالمسيلة وتأدب بها قليلا ثم ارتحل إلى القيروان سنة ٤٠٦هـ ، ثم يقول : وقال غيره ولد بالمهدية سنة ٣٩٠هـ[٤] .

وهكذا نجد رأيين فى بلده الأول ، فرأى أنه المحمدية ، ورأى أنه المهدية ، فإذا علمنا أن « المسيلة هى المحمدية والمحمدية من أعمال برقة من ناحية الإسكندرية[٥] ورأينا ابن بسام أقدم من أرخ له بنسبه إليها فى عنوان ترجمته له فيقول « على ابن رشيق المسيلى » وأن القفطى جعله : « الحسين ابن رشيق الإفريقى المعروف بالقيروانى . ثم صرح بأن المحمدية مولده . وأن ياقوتاً يذكر أن ابن رشيق

---

(١) انباه الرواة على انباه النحاة جـ ١ ص ٢٧٧ .

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٧٧ .

(٣) معجم الأدباء جـ ١ ص ١١٢ .

(٤) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٦٤ .

(٥) معجم البلدان جـ ٧ ص ٣٩٨ .

قال عن نفسه فى آخر أنموذجه « . . إنه ولد بالمحمدية » وأن ابن خلكان ينقل مثل ذلك ، — إذا رأينا ذلك كله — كان لنا أن نرد تلك الرواية التى انفردت بجعل ميلاده المهدية ، لأن صاحبها لم يذكر لنا مصدرها ، ولأنها تخالف مجموعة الروايات التى تقرر أن ميلاده كان فى المحمدية . ويتبع ذلك أن نرد رواية المرحوم عبد الله عفيفى التى تقول « فى العهد الذى ظهر فيه كتاب الوساطة ، ظهر كتاب العمدة لابن رشيق القيروانى المولود بالمهدية من أعمال تونس »[١] ونشير هنا إلى أن هذه العبارة مردودة فى جملتها ، فلا ابن رشيق ولد فى المهدية ، ولا العمده ظهر فى العهد الذى ظهر فيه كتاب الوساطة ، وإنما الحقيقة أنه ظهر بعده بأكثر من خمسين عاماً .

ويؤكد ما ذهبت إليه أن ابن فضل الله العمرى جعله « المسيلى » ولا يكون ذلك النسب إلا بالميلاد كما قال الميمنى[٢]

ويؤكد ذلك كله قول ابن رشيق عن نفسه فى « قراضة الذهب » عند الحديث عن العكس : « وقد جمعت الصفتين فى صباى جميعاً ، وكان يعجب أبا اسحق الحصرى ، وما كنت حينئذ سمعت ما قال ابن الأعرابى ، فقلت فى وادى المحمدية :

تحكى غواربه غوارب بزّلٍ جاءت بغير قوادم وهوادى »[٣]

فيبدو من هذا النص أنه كان صبياً حين قال هذا الشعر ، وأنه كان يصف به وادى المحمدية ؛ أفلا يحق لنا بعد أن نستنتج أنه كان يصف ذلك الوادى الذى نشأ فى أحضانه ؟ والذين قالوا بولادته فى المهدية لم يذكروا لنا أنه انتقل منها إلى المحمدية حتى يصف واديها .

واخيراً نرى فى كتاب « رايات المبرزين وغايات المميزين المنتقى من كتاب

---

(١) زهرات منثورة فى الأدب العربى ص ١١ .

(٢) ابن رشيق للميمنى ص ٣٤ .

(٣) قراضة الذهب ص ٣٠٧ — البزل : جمع بازل : البعير الذى طلعت أنيابه .

المغرب فى شعراء أهل المغرب » تحت عنوان علماء الأدب ، المائة الخامسة قول صاحبه : « الرئيس العالم الفاضل أبو على الحسن بن رشيق ، صاحب كتاب العمدة والأنموذج ، مولده بالمسالة وظهوره واشتهاره بالقيروان »[1]

ويرجح ذلك أن يرثى ابن رشيق قاضى المحمدية طاهر بن عبدالله وقد بلغته وفاته ، بقصيدة يقول فيها :

العَفْرُ فى فم ذاك الصارخ الناعى ... ولا أجيبتْ بخير دعوةُ الداعى
فقد نعى ملء أفواهٍ وأفئدةٍ ... وقد نعى ملء أبصار وأسماع
أما لئن صح ماجاء البريدُ به ... ليَكْثُرُن من الباكين أشياعى
يا شؤم طائرِ أخبارٍ مبرّحة ... يطيرُ قلبى لها من بين أضلاعى
ما زلت أفزع من يأس إلى طمع ... حتى تربع يأسى فوق أطماعى
فاليوم أنفق كنز العمر أجْمَعَهُ ... لما مضى واحدُ الدنيا بإجماع
تُوفى الطاهرُ القاضى فوا أسفا ... إن لم يؤس تباريحى وأوجاعى
فللديانة فيه لبْسُ ثاكلةٍ ... وللقضاء عليه قلب ملتاع

فأولى بهذا الرثاء أن يكون وفاء لأبناء بلدة ابن رشيق ، وبرًّا منه بمسقط رأسه ، المحمدية .[2]

والخلاف فى سنة ولادته لايقل عنه فى مكانها فقال الميمنى إنه ولد سنة ٣٩٠ هـ. اعتماداً على ما قرره ابن رشيق عن نفسه فى آخر كتابه الأنموذج ، وقد سبقت الرواية .

وقال حسن حسنى باشا صاحب بساط العقيق : بل ولد سنة ٣٨٥ هـ وحجته أن الرواة قالوا إن ابن رشيق مات عن اثنتين وسبعين سنة وهو فى رأيه مات سنة ٤٥٦ هـ. فليكن مولده عنده سنة ٣٨٥ هـ. حتى تصح رواية الرواة

---

(١) مخطوط بمكتبة الأزهر ص ٢٥ .

(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة ص ٢٨٢ .

فى عدد سنى حياة الرجل قال : « وهذا استنتاج أولى بالأخذ به من رواية الرجل نفسه »[١]

وأغرب من هذا الرأى رواية القفطى التى تقول « ولد الحسن بن رشيق بالمحمدية فى شهور سنة سبعين وثلثمائة »[٢] وعندى أن هذه الرواية من خطأ النساخ ، وأن أصلها « تسعين » فكتبوها « سبعين » يؤيد ذلك أن القفطى نفسه يقول بعدها عن ابن رشيق « وقال الشعر قبل أن يبلغ الحلم واشتاقت نفسه إلى التزيد من ذلك فرحل إلى القيروان وعمره ست عشرة سنة — كذا — وامتدح صاحب القيروان ابن باديس »[٣] ونحن نعلم علم اليقين من غير هذا المصدر أنه ارتحل إلى القيروان سنة ٤٠٦ هـ . وعمره يومئذ ست عشرة سنة ، ولا يكون هذا إلا وميلاده كان فى سنة ٣٩٠ هـ.

وإذا كنت قد رجحت رواية ابن رشيق نفسه عن نفسه فيما يتعلق بمكان ولادته لما ساندها من أدلة ، فإنى أرجحها أيضاً فيما يتعلق بسنة الميلاد على الاستنتاج الذى ذهب إليه صاحب كتاب بساط العقيق ، لأن صدق الرواية أو رجحانها فى شطر منها يدعو إلى ترجيح صدقها فى شطرها الباقى مالم يقم دليل على غير ذلك .

أما اعتماد صاحب البساط على « أنه لايعقل أن يكون ابن رشيق قد اجتمع ببعض الشعراء سنة ٤٠١ هـ لأن سنه يومئذ لم تكن جاوزت الحادية عشرة فيمكن الرد عليه بأن النبوغ لا سن له ، والشذوذ عن المألوف هو الأصل فى حياة النابهين — وابن رشيق منهم — وفى التاريخ أمثلة كثيرة لذلك ؛ فهذا صاحب معجم الأدباء يذكر أن عبد الله الأزدى الحميدى الحافظ المؤرخ

---

(١) بساط العقيق ص ٣٢ .

(٢) إنباه الرواة على إنباه النحاة ص ٢٧٧ .

(٣) إنباه الرواة على إنباه النحاة ص ٢٧٧ .

الأديب كان يحمل على الكتف للسماع سنة ٤٢٥ هـ وعمره خمس سنوات »[١] وقريب من ذلك ما حكى عن جار الله الزمخشرى .

ونخلص من هذه الروايات إلى أن ابن رشيق ولد فى سنة ٣٩٠ هـ . وليس سنة ٣٧٠هـ . ولاسنة ٣٨٥هـ .

٥ ــ أسرته

والحديث فى هذا الجانب من حياة ابن رشيق يكتنفه غموض كبير ، ذلك أن أحداً من الذين عرضوا لسيرة الرجل لم يتعرض لهذه الناحية بالتجلية ، بله بمجرد الذكر فى قليل أو كثير .

غير أنى برغم ذلك وقفت على أبيات له فى الذخيرة ، استنتجت منها أنه بنى أسرّه ، وأنه ولد له ، فقد رفع إلى المعز ولى نعمته أبياتاً من شعره فى أعقاب ولادة وقعت عنده وكانت المولودة بنتاً فقال :

معز الهدى لا زال عزك دانياً ... وزيّنت الدنيا لنا بحياتكا
أتتنىَ أنثى يعلم الله أننى ... سررت بها إذ أمها من هباتكا
وقد كنت أرجو أنها ذو بلاغة ... يقوم مقامى عن بديع صلاتكا[٢]
وما نحن إلا نبت جودك كلنا ... وكل نبات الأرض من بركاتكا

وإذا كان على الباحث أن يستوحى النصوص فإن هذا النص ينبئنا بأن المعز زوج ابن رشيق أحدى جواريه ، أو أن ابن رشيق تزوج وكان صداق زواجه من هبات المعز وبعض صلاته . وأن الرجل على الرغم من تصريحه بسروره إذ أتته الوليدة أنثى ، فإنه كان يود ويتمنى على الله لو أنها كانت غلاماً تكون له بلاغة أبيه فيقوم مقامه من المعز فى شكره والتغنى بأياديه ونعمته عليه .

وهكذا يكون ابن رشيق قد اتسعت حياته لبناء أسرة يكون فيها زوجاً له

---

(١) معجم الأدباء جـ ٠ ص ٢٨٣ .

(٢) الذخيرة ــ القسم الرابع مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية رقم ٢٦٠٤٦ ص ١٧٧ .

أبناء إلى جنب ما كان له من عبث ومجون سنرى طرفاً منه .

غير أنا نعجب لابن رشيق فإنه — وهو الشاعر المرهف الحس — لا يجرى لسانه ولا ينطق شعره كثيراً بعاطفة الأبوة ولا نجد صدى الأسرة واضحاً فيما خلف من تراث أدبى ، وكأنه لم يعان من تبعات الأبناء ومسراتهم فبينا نراه يقول :

إذا ما خففتُ كعهد الصبا أبت ذلك الخمسُ والأربعونا
وما ثقلتْ كبراً وطأتى ولكن أجرّ ورائى السنينا

أو يقول :

وقائلة ماذا الشحوب وذا الضنى فقلت لها قول المشوق المتيّم
هواك أتانى وهو طيف أعزّهُ فاطعمتهُ لحمى وأسقيته دمى

بينا يقول ذلك . ومثله كثير ، لا نرى صدى الأسرة ولا رجع الأبناء . ولا أمل الوالد ، اللهم إلا فى الأبيات المتقدمة ، وكنا ننتظر منه شعراً كثيراً يتحدث فيه عن أسرته ؛ ولكن لعله يكون فعل وأنشأ شعراً ضاع فى غمار ما ضاع له من آثار .

٦ — وظائفه وأسباب حياته :

كان حتما أن يكون لابن رشيق مرتزق يعيش منه ، وإذا كان والده قد كفله فى صغره فإنا نتصور بعد أن انتقل إلى القيروان واتصل بأميرها المعز بن باديس أن يكون الأمير قد فرض له فى بيت مال الدولة رزقاً ؛ ولم لا وهو يقصده منذ خرج من بلده الأول ، المحمدية ، لا يقصد سواه ، والمعز كان يكبر الشعراء ليباهى ببلاطه وبمن يؤمه ، وهذا صاحبنا يقول[1]

وذيالٍ له رجلٌ طحون لما نزلت به ويدٌ زجوج[2]

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٢٠٣ .

(٢) الذيال : الفرس والبيت كناية عن قوته وشدة وطئه الأرض وأنه يطحن حصاها وينثره بيديه

يطير بأربعٍ لا عيب فيها ... أظهران الصفا منها عجيج[1]
خرجتُ به عن الأوهام سبْقاً ... وقلّ له عن الوهم الخروج
إلى الملك المعز أبي تميم ... أمرٌ بمن سواه فلا أعيج[2]

ثم ها هوذا يمدحه بعد ، بقصائد من عيون شعره فيقول فيه من قصيدة :

ذمت لعينك أعين الغزلان ... قمراً أقر لحسنه القمران
ومشت ولاوالله ما حقف النقا ... مما أرتك ، ولا قضيب البان
وثنى الملاحة غير أن ديانتي ... تأبى عليّ عبادة الأوثان
يابن الأعزة من أكابر حِمْيَرٍ ... وسلالة الأملاك من قحطان
من كل أبلج آمر بلسانه ... يضع السيوف مواضع التيجان

ولما بدا أن المعز رضي عن شعره وتوسم فيه النبوغ ، وقربه إليه ، ألحقه رئيس ديوان الإنشاء ، أبو الحسن على بن أبي الرجال — بأمر الأمير — بخدمة الديوان فأظهر من الكفاية ما حبب هذا فيه ، فتوثقت الصلة بينه وبين أبي الحسن على ؛ حتى رفع إليه خير كتبه «كتاب العمدة[3]» ثم راح يثنى عليه كلما سنحت فرصة .

ويمكن أن نحدد وظيفة ابن رشيق فى الديوان فنقول إنه كان الكاتب المختص بأمور الجيش ، وعمدتنا فى هذا بيت من الشعر قاله يتحدث به عن نفسه وهو قوله

وقد كنت كاتب جيش الأمير ... ومجرى الأمور على رسمها

ويظهر أنه انقطع عن وظيفته لمطامع حدثته بها نفسه ولكن خاب فى بعاده عن الأمير فرجع إلى مولاه يعتذر من غيبته ويقول :

ولولا شقائى لم أغب عنك ساعة ... ولا رام صرف عن حياتك صارف
ولكننى أخطأت رشدى فلم أصب ... وقد يخطئ الرشد الفتى وهو عارف

---

(١) ظهران الصفا : حصا الأرض والعجيج صوت حوافر الحصان عليه .
(٢) لا أعيج لا أميل وعليه قول الآخر :
تمرون الديار ولم تعوجوا ... كلامكم على إذاً حرام
(٣) ظهر الإسلام جـ ١ ص ٣٠٥.

على أنه بعد فتنة المعز وخراب القيروان ، نزح إلى المهدية وعاش سنين فى كنف تميم أميرها ، ولعله أن يكون قال فى هذه الفترة أبياته :

أصح وأقوى ما سمعناه فى الندى من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا[1] عن البحر ، عن كف الأمير تميم

ولكن حياته فى كنف تميم لم تنسه حياة القيروان التى يبكيها بقصيدته الطويلة والتى يقول فيها :

أترى الليالى بعد ما صنعت بنا تقضى لنا بتواصل وتدان
وتعيد أرض القيروان كعهدها فيما مضى من سالف الأزمان
من بعد ما سلبت نضائر حسنها الأيا م واختلفت بها ميتان[2]
أمست وقد لعب الزمان بأهلها وتقطعت بهمُ عرى الأقران
فتفرقوا أيدى سبا وتشتتوا بعد اجتماعهم على الأوطان[3]

أما عن ابن رشيق فى صقلية فلا نعرف شيئاً عن حياته يستحق أن يذكر إلا أنه رثى المعز بن باديس لما بلغته فيها وفاته .

٧ — ولى نعمته

ولا نغادر هذا المقام حتى نقول فى صاحبه وولى نعمته القريب ابن أبى الرجال . فعن أمره وضع كثيراً من شعره — كما يقول هو — وإليه رفع كتابه العمدة ، وكان صاحبه ذلك ، رجلا شاعراً يروى له ابن رشيق كثيراً من الشعر فى مواطن كثيرة من العمدة ، فهو القائل .

باكر الراح ودع عنك العذلْ واسع فى الصحة من قبل العللْ

---

(١) الحيا : المطر .

(٢) هكذا الرواية .

(٣) سبأ وسبا : اسم رجل يجمع عامة قبائل اليمن . وفى المثل « تفرقوا أيدى سبا » ضرب بهم المثل فى التفرق لأنه لما غرق مكانهم وذهبت جناتهم تبددوا فى البلاد فأخذت كل طائفة منهم طريقاً .

واغتنم لذة يومٍ زائل والمنايا ضاحكات بالأمل

وكأنما أشرب صاحبنا روح صاحبه فكان مرحاً فكهاً كما سنذكره بعد . ومات ابن أبي الرجال هذا سنة ٤٢٥ هـ.

٨ — سلوك ابن رشيق

(ا) وأريد بها سلوكه العام فى حياته الاجتماعية والعلمية ، فأما عن الأولى فقد وضحت فيه صفات من أهمها ، أنه كان يؤثر السلام والمودة فلا يجرّ على نفسه عداوات الناس . وإن اضطر إلى شىء من هذا اكتفى فى الانتصاف لنفسه بالتلميح دون التصريح ، وكثيراً ما كان ينعى على الشعراء اندفاعهم فى التصدى للحكام ، فيقول مثلا « وأحمق الشعراء عندى من أدخل نفسه فى هذا الباب — باب التعرض للحكام — وما للشاعر والتعرض للحتوف . . وإنما هو طالب فضل . . وكل شىء يحتمل إلا الطعن فى الدول فإن دعت إلى ذلك ضرورة مجحفة فتعصب المرء لمن هو فى ملكه وتحت سلطانه أصوب »[١]

ويقول : والشاعر أولى من كف منطقه وأقال عثرات اللسان »[٢]

ويقول :

وأخرق أكال للحم صديقه وليس بجارى ريقه بمسيغ

سكت له ضنّاً بعرضى فلم أجب ورب جوابٍ فى السكوت بليغ[٣]

وكان فيه رضا بالقليل ، ورغبةٌ عن المجازفة ، قالوا : عرض عليه ابن شرف حين هاجر إلى صقلية أن ينزح معه إلى الأندلس فرفض وآثر المقام على الرحيل الذى يضطره لركوب بحر لا يدرى معه إلى أى غاية يسير ، وفى هذا المعنى يقول :

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٥٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٣ .

(٣) العمدة جـ ١ ص ٢١٥ .

يُعْطَىَ الفتى فينال فى دعــة ما لم ينل بالكدِّ والتعب
فاطلب لنفسك فضل راحتهــا إذ ليست الأشياء بالطلب[1]

(ب) وينم شعره عن ميل إلى الغلمان ، يعبث معهم ، ويتلهى بهم ، صنع أبى نواس ، على قصد هنا وإسراف هناك ، وقد أورد له صاحب البدائع أكثر من قصة فى هذا الباب ، فساق من ذلك فيما يقرب من صفحتين قصته مع صبى صائغ عبث به ، وبالغ فى وصفه ، ثم ختم القصة بشعره الذى يقول فيه :

وأسمرُ اللون عسْجَدِىّ يكادُ يستمطر الجهاما
ضاق بحمل العذار ذرْعــاً كالمهر لا يعرف اللجاما
ونكّس الرأس إذ رآنى كآبة واكتسى احتشاما
وظن أن العذار ممــا يزيح عن قلبى الغراما
وما درى أنه نبات أنبت فى جسمى السّقاما
وهل ترى عارضَيْه إلا حمائلا حُمِّلت حساما[2]

ولست أدرى ، أغلامه هذا هوالذى يقول عنه « كان كثيراً ما ينتابنى غلام وضىء الوجه ، ذو خال تحت لحيته ، فنظر إليه يوماً بعض أصحابى ، ثم أطرق ، فعلمت أنه يعمل فيه — شعراً — فصنعت بيتين وسكت عنهما خوف الوقوع دونه ، فلما رفع رأسه قال اسمع وأنشد :

يقولون لى من تحت صفحة خده تنزّلَ خالٌ كان مسكنه الخال

---

(١) يريد أنه كثيراً ما ينال المرء الامر من غير سعى والعكس بالعكس وهذا شبيه بقول ابن زيدون :

ما عــلى ظنى بأس يجرح الدهــر ويأسو
ولــكم أجــدى قعود ولــكم أكدى القياس

(٢) بدائع البدائه ص ١٦٨ .

فقلت :

حبذا الخال كامناً منه بين ال جيد والخدّ رقْبةً وحذاراً

وأياما كان فللغلمان فى حياة ابن رشيق شأن يثير الريبة ، ويبعث على الشك فى سيرته معهم ، وكيف لا ومن شعره فيهم قوله :

إن زارنى يوماً على خلوة أو زرته فى موضع خال

كنت له . . . .

وقوله :

سأشكر للحمام بدءاً وعودة أيادى بيضا ما لهن ثمين

جلاك على عينىّ عــريان ... ...

وظهرّ قلبى من هواك ... ... (١)

إلى شعر أصرح لفظاً ، وأفحش معنى ، نمسك عن أن نذكره اكتفاء بالإشارة إليه .

٩ ــ الشراب فى حياة ابن رشيق :

ويظهر أن كان له ولوع بالشراب فما أكثر ما يتحدث عن الخمر ، وعن مجالسها وندمانها كأن يقول :

قم فاسقنى قهوة إذا انبعثت فى باخل جاد بالذى ملكه

كأن أيدى الرياح إذ بسطت فى متنه ، أظهرت لنا حبكه

ويكرر هذا المعنى فى موطن آخر فيقول :

غنى يامجوّد الخلق عندّى « حى نجداً ومن بأكناف نجد »

واسقنى ما يصير ذو البخل منها تمائماً ، والجبان عمرو بن معدى

فى زمان الشباب عاجلنى الشيـ ـب فهذا أوائل الدنّ دردى

---

(١) المصدر السابق .

١٠ – توبة وندم :

ويقول وقد تقدمت به العمر وكأنما يصحو من غفوته :

قرعت سنى على ما فاتنى ندما ... من الشباب. ومن باللهو للشيب
فقد رددت كئوس الراح مترعةً ... على السقاة وكانت جُلَّ مشروبى
أنزه السمع والعينين فى نغمٍ ... ومنظر عابث بالحسن والطيب
من كل لافظة بالدر باسمة ... عنه محلاة نوع غير مثقوب
أيام تصحبنى الغزلان آنسة ... هذا على أننى أعدى من الذيب

وناهيك باعترافه الصريح فى آخر هذه الأبيات بما كان عليه أيام الشباب .

١١ – دعابته :

وقد كانت فيه إلى جنب ذلك كله دعابة مستملحة لاتعدم معجباً بها ، فها هو ذا يقول فى نفسه ، وكان أحول ، وفى الطوسى الشاعر المعاصر له . وكان أعمى ، وفى محمد بن شرف ، وكان أعور :

لا بد فى العور من تيه ومن صلف ... لأنهم يبصرون الناس أنصافاً
وكل أحول يلفى ذا مكارمة ... لأنهم ينظرون الناس أضعافاً
والعمى أولى بحال العور لو عرفوا ... على القياس ولكن خاف من خافا

ومع أن الشعر للدعابة فإنه ينم عن رأيه فى منافسة ابن شرف فقد رآه صاحب تيه وصلف وكبرياء . وكذلك كل دعابة تحمل شيئاً من عقيدة قائلها فيمن قيلت له .

ويقول فى البغل :

أوصيك بالبغل شراً ... فإنه ابن الحمار
لا يصلح البغل إلا ... للكد والأسفار

كالعبـــد إن لم تهنه جنى على الأحـــرار
ما اعتاض بغلا بطرف إلا أخو إدبـــار[1]

١٢ ــ تدينه :

ويشهد هذا كله بأن كانت فى الرجل رقة ، وفى دينه ضعف ، فهو لا يتحرج من الإثم ، ولا يمتنع من أن يصرح به فيقول فى بعض ما يقول :

إنى لقيت مشقة فابعث إلىّ بشقة
كمثل وجهك حسناً ومثل دينى رقة

وليس ذلك ببدع فى الشعراء فكثير منهم من هذا القبيل .

١٣ ــ خلقه العلمى وأمانته :

فإذا تركنا ذلك إلى خلقه العلمى ، رأينا منه أمانة وتواضعاً . ينقل الرأى عن غيره فيصرح بذلك ويقول « وقد نقلت هذا الباب عن كتاب ابن المعتز إلا مالا خفاء به على أحد من أهل التمييز »[2] وهل يبتغى العلماء أكثر من ذلك حين يطالبون الباحث والمؤلف بذكر المصدر والمرجع ونسبة الرأى إلى قائله ما لم يكن هو صاحبه ؟

وكان متواضعاً بعلمه لايتيه به ، ولا يُدِل بشعره ، ولا يسمو بنظره إلى فوق مرتبته ، وسيرد عليك حديث ما ناجته به نفسه من معارضة المتنبى ، وكيف كفها حين رأى أنه دون ما أرادت . واسمع إليه يقول : « وقد قلت أنا وإن لم أدخل فى جملة من تقدم ، ولا بلغت خطته » ويقول : « وقد صنعت على ضعف متنى وتأخر وقتى »[2] ويقول بعد أن يسوق كلاماً عن سعد بن مالك

---

(١) الطرف بكسر الطاء : الجواد .
(٢) العمدة جـ ٢ ص ٧٦ .
(٣) العمدة جـ ٢ ص ٢٢ .

ولا أدرى هل هو أبو بكر بن قميئة الشاعر ، والمرقش الأكبر أم لا »[١] ولا أدرى ، كما قالوا نصف العلم .

على أن هذا التواضع لم يمنعه أحياناً من أن يشهد لنفسه « بجودة الميز ، وفرط التثبيت ، والإنصاف إن شاء الله »[٢]

١٤ ــ معاصروه وأنداده :

لما كانت كلمة « المعاصر » تنصرف إلى واحد من ثلاثة : رجل أدركه ابن رشيق فأخذ عنه وسمع منه ، وجلس إليه هو مجلس المتعلم ، وهؤلاء هم شيوخه .

ورجل عاصره ولم يأخذ عنه شيئاً وإنما جمعت بينهما حرفة الأدب أو أو توافق السن ، أو وحدة المشرب ، أو قصر المعز ، وهؤلاء هم أنداده .

ورجل جعل من ابن رشيق شيخاً له يأخذ من علمه ، أو يروى من شعره وهؤلاء هم تلاميذه . أقول لما كان ذلك كذلك ، ولما كنت سأتحدث عن شيوخه عند الحديث عن مصادر ثقافته فإنا نتحدث هنا عن أنداده وتلاميذه .

وأنداده الذين ثقفوا بثقافته ، واشتركوا معه فى الأخذ أحياناً عن مشيخة واحدة ، وساجلوه أحياناً قرض الشعر ، وشاركوه فى تذوق الأدب ، أو ضمهم وإياه قصر المعز أكثر من أن نحصيهم عدداً ، لكن ذلك لا يحول بيننا وبين أن نتحدث عن نفر منهم .

فهذا أبو حديدة الشاعر . يقول عنه ابن رشيق فى أنموذجه : « اجتمعت بأبى حديدة الشاعر يوماً وأنا سكران فسألنى عن حال المكان الذى كنت فيه فوصفته ، وأفضت فى صفته إلى ذكر غلام كان ساقياً ، فقلت فى عرض الكلام ولم أرد الوزن :

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٧٠ .

(٢) العمدة جـ ١ ص ١٥ .

فشربتهـا من راحتيـ ـه كأنها من وجنتيـه
وكأنهـا فى فعلهـا تحكى الذى فى ناظريه

وقلت له أجز ، فقال :

وشممت وردة خـده نظراً ونرجس مقلتيـه

فقلت له أحسنت فى شمك بالنظر كما سمع أبو الطيب بالبصر حين قال

كالخط يملأ مسمعَىْ من أبصرا » [1]

وهذا خلف بن أحمد قال عنه أيضاً فى أنموذجه « شاعر مطبوع تأدب بإفريقية — وإفريقية يومئذ يراد بها تونس — وله شعر جيد ، مات بزويلة سنة ٤١٤هـ. ومن شعره :

هل الدهر يوماً بليلى يجـودُ وأيامنا باللوى هل تعود[2]

وأولئك هم أبو لقمان الصفار ، والدَّرْكادو ، وأحمد بن إبرهيم الكمونى ، كانت لهم معه مجالس يجتمعون فيها فيتطارحون الأشعار ، وفى بعض ذلك يقول ابن رشيق « جلست فى دكان أبى لقمان الصفار — وكان يتهم فى شعره — مع جماعة من الشعراء ، وأبو لقمان والدركادو يلعبان الشطرنج ، ونحن نضحك لما يجرى بينهم من غريب المهاترة ، فقال الدركادو ؛ أجز أبا لقمان :

حيتانُ حُبِّك فى طنجور[3] بلوائى

فقال أبو لقمان : وفحم وجهك فى كانون أحشائى

فقال أحمد بن إبرهيم الكمونى : أحسنتَ يا أبا لقمان ؛ قسيمُك خيرٌ من قسيمه ، فزُهِى ؛ وقال أدافعٌ فى بديع الشعر؟ .. وهذا شعر فى الهتف..[4]

---

(١) بدائع البدائه ص ٦٥ .
(٢) معجم الأدباء ج ٢ ص ٦٥ .
(٣) الطنجور والطنجرة إناء من نحاس .
(٤) بدائع البدائه ص ٤٠ .

وإذا كان من أنداد ابن رشيق من يستحق أن نقف عنده وقفة — وإن تكن قصيرة . فذلكم هو ابن شرف القيروانى ، وكان نداً وقريعاً لصاحبنا ، ومزاحماً له فى مكانته عند المعز بن باديس ؛ قال ابن بسام حين ترجم له : « وبينه وبين أبى على بن رشيق ماج بحر البراعة ودام ، ورجح نجم هذه الصناعة واستقام ، وذهبا من المناقضة مذهباً تنازعاه شراً طويلاً ، وخلداه ذكراً محمولاً ، واحتملاه — إن لم يسمح الله — وزْراً ثقيلاً ؛ وكان أبو على أوسعهما نفساً ، وأمرسهما ملتمساً » . (١)

وهذا التنافس الذى كان بين الرجلين يرجح أن يكون ابن شرف هذا هو من عناه ابن رشيق لما قال : « وفى زماننا هذا قوم يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون » . (٢) ولما قال :

يا موجعى شتماً على أنه ... لو فرك البرغوث ما أوجعا
كل له من نفسه آفة ... وآفة النحلة أن تلسعا

كما يرجح عندى أن يكون ابن شرف أراد ابن رشيق بعبارته التى يقول فيها مخاطباً أبا الريان الذى عزا إليه الحديث فى رسالته « أعلام الكلام » يا أبا الريان لقد رأيت لك نقداً مصيباً ، ومرمى عجيباً ، ولقد أرغب فى أن أنال منك نصيباً فقال : النقد هبة فى الموالد ، وفيه زيادة طارف إلى تالد : ولقد رأيت علماء بالشعر ، ورواة له ، ليس لهم نفاذ فى نقده ، ولا جودة فهم فى رديه وجيده ؛ وكثير ممن لا علم له يفطن إلى غوامضه ، وإلى مستقيمه ومتناقضه(٣)»

على أن التاريخ يسجل لنا اجتماع الشاعرين ، ابن رشيق وابن شرف ، بحضرة المعز بن باديس ، وكيف كان المعز يثير بينهما شياطين الشعر ، يقول ياقوت : « وكان ابن شرف وابن رشيق صاحب العمدة متقدمين عنده على سائر من فى

(١) الذخيرة القسم الرابع ، المجلد الأول ص ١٣٣ .
(٢) العمدة جـ ٢ ص ١٧٣ .
(٣) أعلام الكلام ص ٢٧ .

حضرته ، فكان يدنى هذا تارة ، ويدنى ذاك تارة أخرى ، فتنافسا ، وتنافرا ، ثم تهاجيا ، ولكن لم يتغير أحدهما على صاحبه بما جرى بينهما من المتناقضات».[1]

قال ابن شرف : استدعانى المعز يوماً واستدعى أبا على الحسن بن رشيق الأزدى ، وكنا شاعرى حضرته ، وملازمى ديوانه فقال : أحب أن تصنعا بين يدى قطعتين فى الموز على قافية الغين ، فصنعنا حالا من غير أن يقف أحدنا على ما صنعه الآخر ، فكان الذى صنعته :

يا حبذا الموزُ وإسعادهُ ... من قبل أن يمضغه الماضغ
لاَنَ ، إلى ألاَّ مجَسَّ له ... فالفم ملآنُ به فارغ
سيان قلنا مأكلٌ طيب ... فيه وإلا مشربٌ سائغ

والذى صنعه ابن رشيق :

موز سريع أكله ... من قبل مضغِ الماضغ
مأكلةٌ لآكل ... ومشربٌ لسائغ
فالفم من لين به ... ملآنُ مثل فارغ
يخال وهو بالغٌ ... للحلق غيرَ بالغ

ومثل ذلك قوله أيضاً : « استخلانا المعز يوماً ، وقال أريد أن تصنعا شعراً تمدحان به الشّعر الرقيق الخفيف الذى يكون على سوق بعض النساء ، فإنى أستحسنه ، وقد عاب بعض الضرائر بعضاً به ؛ وكلهن قارئات كاتبات ، فأحب أن أريهن هذا وأدعى أنه قديم لأحتج به على من عابه ، وأسر به من عيب عليه ، فانفرد كل منا وصنع فى الوقت ، فكان الذى قلت :

وبلقيسية زينت بشعر ... يسير مثل ما يَهَب الشحيحُ
رقيقٍ فى خدلجة رداح[3] ... خفيفٍ مثلَ جسم فيه روحُ

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٩ ص / ٣ .
(٢) بدائع البدائه جـ ١ ص ١٢٦ ، ١٢٧ .
(٣) الخدلجة الرداح الممتلئة المكتنزة الثقيلة المشى والعرب تحب من النساء المرأة البضة .

حكى زَغب الخُدود وكلُّ خدّ به زغبٌ فمعشوق مليح
فإن يك صرح بلقيس زجاجاً فمن حِدَق العيون لها صروح

وكان الذى قال ابن رشيق :

يعيبون بلقيسية أن رأوا بهـا كما قد رأى من تلك من نصب الصرحا
وقد زادها التزغيب ملحاً كمثل ما يزيد خدود الغيد تزغيبها ملحا

ـ يقول ابن شرف ـ فانتقد المعز على ابن رشيق قوله : يعيبون ، وقال له : قد أوجدت لخصمها حجة بأن بعض الناس عابه، وهذا نقد ما فطنت له».[1]

١٥ ـ حساده :

ولما ألف ابن رشيق كتابه العمدة ، نال منه بعض معاصريه ، بنقدهم إياه فى بعض أبوابه ، وظنى أن كان على رأس هؤلاء العائبين ابن شرف فقال الرجل فيهم : « وهذا باب يختلط على كثير من الشعراء ، ممن ليس له ثقوب فى العلم ، ولا حذق بالصناعة ، كجماعة ممن وسم فى بلدنا بالمعرفة ونسب إليها مكذوباً عليه فيها ، كاذباً فيما ادعاه منها ، ولتعرفنهم فى لحن القول » .[2]

ويقول فى موطن آخر معرضاً بهم « وكم فى بلدنا هذا من الحفاث ، قد صاروا ثعابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهين ، ولولا أن يعرفوا بتخليدهم فى الكتاب ، ويدخلوا فى جملة من يعد خطله ، ويحصى زلله لذكرت من لحن كل واحد منهم » .[2]

وليس أوجع من هذا أسلوباً ، ولا أنكى منه طعناً وغمزاً وتعريضاً ، وسنحقق ما كان بين ابن شرف هذا وابن رشيق لنرى أيهما أخذ عن صاحبه .

وقد كنا نود لو وصلنا كتاب الأنموذج له لنرى فيه رأيه فى كثير من معاصريه،

---

(١) التتف من شعر ابن رشيق وابن شرف ص ٢١ ، ٩٤ .
(٢) العمدة ج ٢ ص ٨٠ .
(٣) ابن رشيق للميمنى ص ٤٣ .

فإنه ألفه عنهم ، ولولا بقية من الكتاب نقلتها إلينا كتب التراجم والطبقات لما عرفنا عن الكتاب شيئاً .

١٦ — تلاميذه :

وإذ قلنا فى أنداده ورفاقه ، فإنا نقول كلمة فى تلاميذه .

والعقل يحيل أن يكون ابن رشيق عاش تلك الحياة المليئة بالإنتاج الأدبى والعلمى ثم لا يكون له مريدون . وإذا كانت كتب التراجم لم تعن بتسجيل هذه الناحية فى حياة الرجل ، فإنا نجد فى ثناياها بين الفينة والفينة تلميحاً إلى أن قد كان هناك من أعجبوا بالرجل فى شعره ونقده فأخذوا عنه ، وإليك من وقفنا على طرف من حياتهم فيما قرأنا .

فمنهم أبو محمد عبد الله بن يحيى بن حمود الخزيمى ، يروى كثيراً من شعر ابن رشيق ، فيعده الميمنى فى ترجمته له من تلاميذه ، مع شكه فى رواية الشعر ، « أيرويه عنه بواسطة — كذا — أم بدونها » . (١)

ومنهم أبو عبد الله الصقار الصقلى ، كان فى صقلية وكانت تأتيه أشعار ابن رشيق ، فتاقت نفسه إلى لقائه ، فلما أتيحت له فرصة الرحلة إلى القيروان وبلغها قصد صاحبه ، وسمع منه شعره ، وحكى عنه فقال : « كان بالقيروان غلام وضىء ، وكان يختلف إلى أبى على حسن بن رشيق ، فكان يحذره من المخالطة ، فخرج يوماً يتنزه مع جماعة ، فأشيع عنه ما ينكر ، وبلغ أبا على ذلك فقال بديها :

يا سوء ما جاءت به الحال إن كان ما قالوا كما قالوا
ما أحذق الناس بصوغ الخنا صيغ من الخاتم خلخال »(٢)

وإذا كان الميمنى لا يذكر غير هذين الرجلين بأسلوب لا نقطع معه

---

(١) ابن رشيق للميمنى ص ٤٣ .
(٢) بدائع البداله ص ٢٠٦ .

بأنهما تتلمذا على ابن رشيق ، فإنا نذكر على اليقين تلميذا يصرح هو نفسه بأن ابن رشيق شيخه، ذلكم هو أبو عمر عثمان بن على بن عمر الخزرجى الصقلى، ألف مختصر العمدة ، ويقول عن شيخه : قال لى من قصيدة أولها :

دمع رأى برق الحمى فتحدرا وجوى ذكرت له الحمى فتسعرا

ولا يكون قال له ذلك الشعر إلا وهو يتلقى عنه ، ويسمع منه .

ولا نشك فى أن كان لابن رشيق غير هؤلاء ، تلاميذ كثر ، ولكن الوثائق غير قائمة فى أيدينا بأسمائهم .

١٧ — وفاة ابن رشيق :

(ا) وكما اختلف المؤرخون فى سنة ولادته فقد اختلفوا فى عام وفاته ، واختلافهم ههنا أكبر ، وكذا الشأن فى مكانها .

فرأى صاحب معجم الأدباء أنه « مات بالقيروان سنة ٤٥٦ هـ » .[١] عن « ست وستين سنة » [٢] وبهذا قال السيوطى ، ناقلا عنه ، وهو ناقل عن ابن رشيق كما يقول من كتابه الأنموذج ، والخلط واضح فى قوله « ذكر ابن رشيق هذا نفسه فى كتابه الذى صنفه فى شعراء عصره ووسمه بالأنموذج » [٣] إذ كيف يذكر ابن رشيق — أو غيره ، سنة وفاته أو مكانها ، ولكنه اضطراب فى العبارة نقله السيوطى عن صاحب المعجم بلا تحقيق .

وأما صاحب شجرات الذهب ، فيقرر أن الرجل مات سنة ٤٥٦ هـ. يقول تحت حوادث هذه السنة عبارته « وفيها — مات — ابن رشيق القيروانى — أحد الأدباء البلغاء ، وله التصانيف الحسنة » .[٤]

---

(١) معجم الأدباء جـ ٨ ص ١١٠ .
(٢) المصدر السابق ص ١١١ .
(٣) معجم الأدباء جـ ٨ ص ١١٢ .
(٤) شذرات الذهب جـ ٣ ص ٢٩٤ .

وذكر ابن خلكان أنه مات سنة ٤٦٣هـ[١] ثم عاد فقال : « ورأيت بخط بعض الفضلاء أنه توفى سنة ست وخمسين وأربعمائة بمازر »[٢] وعقب على هذه الرواية بقوله : « والأول أصح » وإن لم يذكر لوجه الصحة سبباً .

ثم يعود ابن خلكان فيذكر رواية أخرى توافق روايته المرجوحة ولا تختلف عنها إلا فى وقتها إذ يذكر فيها السنة والشهر والليلة بالحروف فيقول «وقيل إنه توفى ليلة السبت غرة ذى القعدة سنة ست وخمسين وأربعمائة »[٣] وكأنما يحس من نفسه الحرج فى ترجيح غير هذه الرواية ، وفى تصديره لتلك بكلمة « قيل » المشعرة بالشك . فيختم حديثه بقوله « والله أعلم » .

وأصحاب دائرة المعارف الإسلامية لا يقطعون فى المسألة برأى وإنما يسوقون الروايتين معاً .

أما أنا فأذهب إلى أنه مات سنة ٤٥٦هـ. لأنه هاجر إلى صقلية سنة ٤٥٣هـ. وأستبعد أن يكون مات سنة ٤٦٦ هـ. فيكون عاش فى صقلية قرابة ثلاثة عشر عاماً ، فى الجو الملىء بالاضطرابات ثم لا نسمع له فى هذه الفترة على طولها صوتاً ، ولا يقولن قائل يجوز أن يكون أنتج فى هذه المدة وضاع إنتاجه ، لأنا نقول إن هذه الفترة مدونة بدقائقها وتفاصيلها ، ولم نعثر فيما قرأنا عنها له ذكراً . مع أنا قرأنا عمن دونه مكانة ومنزلة .

ثم الرواية التى تجعل موته سنة ٤٥٦هـ. تذكر الليلة التى مات فيها والشهر والسنة بالحروف ، وقد رجعت إلى كتاب « التوقيعات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية » وعرضت عليه تلك الرواية التى رجحت والتى تجعل وفاته ليلة السبت من ذى القعدة سنة ٤٥٦هـ. فرأيت فيه أن غرة ذى القعدة من تلك السنة يوافق يوم جمعة . فازددت بها إيماناً لأن اختلاف

---

(١) الوفيات جـ ٤ ص ١٦٤ .

(٢) الوفيات جـ ٤ ص ١٦٥ .

(٣) الوفيات جـ ٤ ص ١٦٦ .

بداية الشهور العربية بيوم واحد أمر كثير الوقوع ، حتى فى أيامنا تلك التى نستعين فيها على التقويم بالمراصد وما فيها من آلات مستحدثة .

ومن الغريب أن يرجح المرحوم أحمد تيمور أن وفاة الرجل كانت سنة ٤٦٣هـ. من غير أن يسوق حجة واحدة تسند هذا الترجيح أو تدعمه[١]. وساق مثل هذه الدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه « تاريخ الحركة الفكرية فى مصر » . [٢]

(ب) ومثل اختلافهم فى سنة وفاته اختلافهم فى مكانها ؛ فصاحب المعجم يذكر أنه مات بالقيروان[٣] ، وقد أوضحت ما فى روايته هذه من خلط لأن فيها استحالة عقلية . وينقل عنه السيوطى فهو مثله .

وأما ابن خلكان فيقول : « ولم يزل بها — يعنى القيروان — إلى أن هجم العرب القيروان — كذا — وقتلوا أهلها وأخربوها ، فانتقل إلى جزيرة صقلية وأقام بمازر إلى أن مات »[٤] ثم يقول ثانية وثالثة ، إنه مات فى مازر ويذكر أن مازر «قرية فى جزيرة صقلية وسيأتى ذكرها فى ترجمة المازرى إن شاء الله»[٥]

ويقول القفطى «ولم يزل ابن رشيق على ما هو عليه من إقامة سوق الأدب . . . إلى أن هجم العرب القيروان ، وقتلوا من فيها . . . فعند ذلك فرعنها إلى ساحل البحر المغربى ، ولم يمكنه المقام هناك، فعدّى البحر إلى جزيرة صقلية، ونزل بمازن — كذا وهى لا شك مازر — إحدى مدنها على أميرها ومتوليها ابن مطلود ، فأكرمه واختصه ، وقرأ عليه كتبه ، ومن جملة ما رأيته من قراءته عليه كتاب العمدة فى صنعة الشعر وهو أجل كتبه وأكبرها ؛ ورأيت خط ابن

---

(١) ضبط الأعلام ص ٦٤ .

(٢) الحركة الفكرية فى مصر ص ٢٦٤ .

(٣) معجم الأدباء ج ٨ ص ١١١ .

(٤) الوفيات ج ٤ ص ١٦٥ .

(٥) المصدر السابق ص ١٦٥ .

رشيق على نسخة منه ولم يزل عنده إلى أن مات بمازر فى حدود سنة خمس وأربعمائة — كذا — ولعلها خمس وخمسين وأربعمائة — رحمه الله تعالى » [١]

وإذ رددت رواية ياقوت التى تجعل مكان وفاة الرجل القيروان ، لما أشرت إليه من استحالة قبولها عقلا ، وكذا رواية السيوطى عن ياقوت ، فإنى أقرر أن ابن رشيق مات فى مازر بصقلية ، ذلك أننا نعلم يقينا أنه انتقل إليها ، يقول ابن بسام : « إن بعض وزراء إشبيلية قال : جهز عباد بعض التجار إلى صقلية ، وكان ابن رشيق كثيراً ما يسمع بذكر عباد فيرتاح إلى جنابه ارتياح الكبير إلى شبابه ، فلما سمع بمقدم التاجر لزم داره وجعل يتردد عليه ويغشاه ؛ ويقترح عليه لقاء عباد ويتمناه ، والتاجر يعده ويمنيه ، ويقرب له ذلك ويدنيه ، حتى إذا أسمحت الرياح ، وأمكن فى ميدان البحر المراح ، ذهب التاجر لطيته ، وخلى ابن رشيق إلى أمنيته ؛ وأخبر التاجر عباداً بذلك ، كأنه يتبجح بما هنالك ؛ فبالغ عباد فى نكاله ، وأمر باستصفاء أكثر ماله ؛ ثم رام ابن رشيق بعد ذلك ركوب البحر فخشن ملمسه ، ولم تساعده على ركوبه نفسه فقال :

البحر صعب المذاق مر لاجعلت حـــاجتى إليه
البحر ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه[٢]

وهكذا كانت آخرة الرجل فى صقلية :

وأما أنه « مات بالقيروان » فلا يكون إلا أن يكون عاد إليها من صقلية ولم ترد رواية واحدة تفيد ذلك . لا قوية ولا ضعيفة ، فلا يبقى إلا أنه مات بمازر من قرى صقلية .

والذين قالوا بموته فى القيروان وهموا والتبس عليهم الأمر لما رأوه يسمى ابن رشيق القيروانى .

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة جـ ١ ص ٢٨٥ .

(٢) الذخيرة ، القسم الرابع — المجلد الأول ص ١٧٦ بمكتبة الجامعة المصرية .